المُشـــكلة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قالت لي صاحبةُ « الجمال البائس » فيما قالت : إن المرأةَ الجميلةَ تخاطب في الرجـل الواحد ثلاثة : الرجلَ وشيطانه وحيوانه ؛ فأما الشيطان فهو معنا وإن لم نـكن معه . . . وأما الحيوانُ فله في أيدينا مقادةٌ من الغباوة ، ومقادةٌ من الغريزة ، إذا شَمَسَ في واحدة أصحب في الأخرى وانقاد ؛ ولـكن المشكلة هي الرجل تـكون فيه رجولة

* * *

نعم إن المشكلة التي أعضلتْ على الفساد هي في الرجل القوى الرجولة يعرف حقيقةَ وجوده وشرفَ منزلته ، ولهذا أوجب الاسلامُ على المسلم أن يكونَ بين الوقت والوقت في اليوم الواحد خارجاً من صلاة

وإنما الرجولةُ في خلالٍ ثلاث : عمل الرجل على أن يكون في موضعه من الواجبات كلِّها قبل أن يكون في هواه ؛ وقبوله ذلك الوضعَ بقبول العامل الواثق من أجره العظيم ؛ والثالثةُ . قدرتُه على العمل والقَبول إلى النهاية

ولن تقومَ هذه الخلالُ إلا بثلاثٍ أخرى : الادراكِ الصحيح للغاية من هذه الحياة ؛ وجعل ما يحبه الانسانُ وما يكرهه موافقاً لما أدرك من هذه الغاية ؛ والثالثةُ القدرةُ على استخراج معاني السرور من معاني الألم فيما أحبّ وكره على السواء

فالرجولةُ على ذلك هي إفراغُ النفس في أسلوب قويّ جزْل من الحياة ، مُتساوقٍ في نمط الاجتماع ، بليغٍ بمعاني الدين ، مصقول بجمال الانسانية ، مُسترسلٍ ببلاغة وقوة وجمال إلى غايته السامية

ولهذه الحكمة أسقطت الأديانُ من فضائلها مبدأ إرضاء النفس في هواها ، فلا معاملة به مع الله إلا في إثم أو شر ؛ وأسقطه الناسُ من قواعد معاملتهم بعضهم مع بعض ، فلا يقوم به إلا الغش والمكرُ والخديعة ، وكلُّ خارج على شريعة أو فضيلة أو منفعة اجتماعية ، فانما ينزع إلى ذلك إرضاء لنفسه وإيثاراً لها وموافقةً لحبّها وتوفيةً لحظها ؛ وعمله هذا هو الذي يُلبسه الوصفَ الاجتماعيّ الساقط ويسميه باسمه في اللغة ، كالرجل الذي يرضى نفسه أن يسرق ليغتني ، فاذا أعطى نفسه رضاها فهو اللص ، وكالتاجر في إرضاء طمعه هو الغاش ، وكالجندي في إرضاء جبنه هو الخائن ، وكالشاب في إرضاء رذيلته هو الفاسق ، وهلمّ جراً وهلمّ جرجرة . . .

* * *

وأما بعد ، فالقصة في هذه الفلسفة قصةُ رجل فاضل مهذب قد بلغ من العلم والشباب والمال ، ثم امتحنته الحياة بمشكلة ذهب فيها نومُ ليله وهدوءُ نهاره حتى كسفت باله وفرّقت رأيه وكابد فيها الموتَ الذي ليس بالموت وعاش بالحياة التي ليست بالحياة

قال : فقدتُ أمي وأنا غلام أحوجَ ما يكون القلبُ إلى الأم ، فخشي عليّ أبي أن أستكين لذلة فقدها فيكون في نشأتي الذلُّ والضراعة ، وكبر عليه أن أحسّ فقدَها إحساسَ الطفل تموت أمه فيحمل في ضَياعها مثلَ حزنها لو ضاع هو منها . فعلمني هذا الأبُ الشفيق أن الرجل إذا فقد أمه كان شأنه غير شأن الصبي لأن له قوة وكبرياء ، وألقى في روعي أني رجلٌ مثله ، وأن أمه قد ماتت عنه صغيراً فكان رجلاً مثلي الآن . . .

وكان من بعدها إذا دعاني قال : أيها الرجل ، وإذا أعطاني شيئاً قال : خذ يا رجل ، وإذا سألني من شأني قال كيف الرجل ؛ وقلّ يومٌ يمرُّ إلا أسمعنيها مراراً حتى توهمتُ أنْ مني رجلاً في عقلي خلقته هذه الكلمة : وتمامُ الرجل بشيئين : اللحيةُ في وجهه ، والزوجة في داره ، فتجيء الزوجةُ بعد أن تظهر اللحية لتكون كلتاهما قوةً له ، أو وقاراً أو جمالاً ، أو تكون كلتاهما خشونة ، أو لتكونا معاً سوادين في الوجه والحياة . . .

أما اللحيةُ لي أنا أيها الرجلَ الصغيرَ فليس في يد أبي ولا في حيلته أن يجيء بها ، ولكن الأخرى في يده وحيلته ؛ فجاءني ذاتَ نهار وقال لي : أيها الرجل ! إن فلانة مُتسماةٌ عليك(١)

(١) هذا هو التعبير العربي الصحيح لقولهم قبل العقد « مخطوبة لفلان »

منذ اليوم فهى امرأتك فاذهب لترى فيك رجلها . وفلانة هذه طفلة من ذوات القُربى ، فأفرحني ذلك وأبهجني ؛ وقلت للرجل الذى فى عقلى : أصبحتَ زوجاً أيها الرجل . . .

وكان هذا الرجلُ الجاثمُ فى عقلى هو غرورى يومئذ وكبريائى ، فكنت أقع فى الخطأ بعد الخطأ وآتى الحماقةَ بعد الحماقة ، وكنت طفلاً ولكن غرورى ذو لحية طويلة . . .

* * *

ونشأتُ على ذلك صلبَ الرأى معتدًّا بنفسى إذا همتُ مضيت ، وإذا مضيتَ لا ألوى ؛ وما هو إلا أن يخطر لى الخاطر فأركبَ رأسى فيه ، ولأنْ تُكسرَ لى يدٌ أو رجل أهونُ على من أن يكسرَ لى رأى أو حكم ؛ وأكسبنى ذلك خيالاً أكذبَ خيال وأبدّه ، يخلط علىّ الدنيا خلطاً فيدعنى كالذى ينظر فى الساعة وهى اثنا عشر رقماً لنصف اليوم الواحد ، فيطالبُها اثنى عشرَ شهرا للسنة . . .

وترامت حريتى بهذا الخيال فجاوزت حدودها المعقولة . وبهذه الحرية الحمقاء وذلك الخيال الفاسد ، كذبتُ على الفكرة والطبيعة

ولست جميلَ الطلعة إذا طالعتُ وجهى ، ولكنى مع ذلك معتقد أن الخطأ فى المرآة . . . إذ هى لا تظهر الرجل الوضيءَ الجميل الذى فى عقلى ؛ ولست نابغةً ولكن الرجل الذى فى عقلى رجل عبقرى ؛ وهذا الذى فى عقلى رجل متزوج فيجب علىّ أبا الطفلَ ــ أن أكون رزيناً رزيناً كوالد عشرة أولاد فى المدارس العليا . . .

وذهبتُ بكل ذلك أرى زوجتى ، فأغلقت البابَ فى وجهى واختبأت منى ، فقلت فى نفسى : أيها الرجل ان هذا نشوزٌ وعصيانٌ لا طاعةٌ وحب . وساءنى ذلك وغمّنى وكبر علىّ فأضمرتُ لها الغَدْر ، فثبتت بذلك فى ذهنى صورةُ (الباب المغلق) وكأنه طلاق بيننا لا باب . . .

* * *

قال : ثم شبَّ الرجلُ فكان بطبيعة ما فى نفسه كالزوج الذى يترقّبُ زوجته الغائبةَ غيبةً طويلة ؛ كلُّ أيامه ظمأ على ظمأ ، وكل يوم يمرّ به هو زيادةُ سنة فى عمر شيطانه ... وكان قد انتهى إلى مدرسته العالية وأصبح رجلَ كتب وعلوم وفكر وخيال . فعرضتْ له فتاة كاللواتى يمرضن للطلبة فى المدارس العليا ، مامنهن على صاحبها إلا كالحمية فى امتحان ... بيد أن (الرجل) لم يعرف من هذه الفتاة إلا أوائل المرأة ... ولم يكد يستشرفُ لأواخرها حتى سمّيت على غيره فخطبت فزفّت ، زُفّت بعد نصف زوج إلى زوج ...

وعرف الرجل من الفلسفة التى درسها أنه يجب أن يكون حراً بأكثر مما يستطيع وبأكثر من هذا الأكثر ... فقالها بملء فيه ، وقال للحرية : أنا لك وأنت لى

قالها للحرية ، فما أسرعَ ماردت عليه الحرية بفتاة أخرى ...

* * *

نقول نحن : وكان قد مضى على (الباب المغلق) تسع سنوات فصار منهن بين الشاب وبين زوجته العقلية تسعة أبواب مغلقة . ولكنها مع ذلك مسماةٌ له يقول أهله وأهلُها (فلان وفلانة) . وليس (الباب المغلق) عندهم إلا الحياءَ والصيانة ؛ وليست الفتاةُ من ورائه إلا العفافَ المنتظر ؛ وليس الفتى إلا ابنَ الأبِ الذى سمّى الفتاةَ له وحبَسها على اسمه ؛ وليست القُربى إلا شريعةً واجبةَ الحق نافذةَ الحكم

وعند أهل الشرف ، أنه مهما يبلغ من حرية المرء فى هذا العصر فالشرفُ مقيِّد

وعند أهل الدين ، أن الزواج لا ينبغى أن يكون كزواج هذا العصر قائماً من أوله على معانى الفاحشة

وعند أهل الفضيلة ، أن الزوجة إنما هى لبناء الأسرة ؛ فان بلغ وجهُها الغايةَ من الحسن أو لم يبلغ ، فهو على كل حال وجهٌ ذو سُلطة وحقوقٍ (رسمية) فى الاحترام ؛ لا تقوم الأسرة إلا بذلك ولا تقوم إلا على ذلك

وعند أهل الكمال والضمير ، أن الزوجة الطاهرةَ المخلصةَ الحبَّ لزوجها ، إنما هى معاملةٌ بين زوجها وبين ربه ؛ فحيثما وضعها من نفسه فى كرامةٍ أو مهانة ، وضع نفسَه عند الله فى مثل هذا الموضع

وعند أهل العقل والرأى ، أن كل زوجة فاضلة هى جميلةٌ جمالَ الحق ، فان لم تُوجب الحبّ وجبت لها المودّة والرحمة

وعند أهل المروءة والكرم ، أن زوجة الرجل إنما هى انسانيتُه ومروءتُه ؛ فان احتملها أعلن أنه رجل كريم ، وإن نبذها أعلن أنه رجل ليس فيه كرامة

أما عند الشيطان لعنه الله ، فشروط الزوجة الكاملة ما تشترطه الغريزة : الحب ، الحب ، الحب

* * *

قال الشاب : وإذا أنا لم أتزوج امرأة تكون كما أشتهى جمالاً وكما يشتهى فكرى غلماً ، كنت أنا المتزوج وحدى وبقى فكرى عَزَبًا . . . وقد عرفتُ التى تصلح لى بجمالها وفكرها معاً ، وتبوّأتْ فى قلبى وأقمتُ فى قلبها . ثم داخَلتُ أهلَها تخاطونى بأنفسهم وقالوا شابٌ وعَزَب ... ومتعلم وسرىّ ... فلم يكن لدارهم (بابٌ مغلق) حتى لو شئت أن أصل إلى كرائمهم فى حرامٍ وصلت ، ولكنى رجل يحمل أمانة الرجولة . . .

أما الفتاة فلست أدرى والله أنها جاذبية نجم أم جاذبية امرأة ؛ وهل هى أنثى فى جمالها أو هى الجمالُ السماوىُّ أتى يتقمص الفنونَ الأرضيةَ لأهل الفن ؟

إذا التقينا قالت لى بعينيها : هأنذى قد أرخيتُ لك الزمام فهل تستطيع فراراً منى ؟ وتلتصق فتقول لى بجسمها : أليست الدنيا كلها هنا ، فهل فى المكان مكانٌ إلا هنا ؟ وتفترق فتحصر لى الزمن كله فى كلمة حين تقول : غداً نلتقى

كلامها كلامٌ متأدب ، ولكنه فى الوقت نفسه طريقة من الخلاعة تلفتك الى فمها الحلو . والحركة على جسمها حركة مستحِيَةٌ ، ولكنها فى الوقت عينه كالتعبير الفني المتجسّم فى التمثال العارى

إنها والله قد جعلت شيطانى هو عقلى ؛ أما هذا العقل الذى ينصح ويعظ ويقول هذا خير وهذا شر ، فهو الشيطان الذى يجب أن أتبرأ منه . .

* * *

قال : وألمّ الأبُ بقصة فتاه ، ويحسبها نزوةً من الشباب يُخمدها الزواج ، فيقول فى نفسه : إن للرجل نظرتين إلى النساء : نظرة إليهن من حيث يختلفن فتكون كل امرأة غيرَ الأخرى فى الخيال والوهم والمزاج الشعرى ؛ ونظرة إليهن من حيث يتساوَيْنَ فى حقيقة الأنوثة وطبيعة الاحترام الانسانى ، فتكون كل امرأة كالأخرى ولا يتفاوتن إلا بالفضيلة والنفعة .

ويقرّر لنفسه أن ابنه رجل متعلم ذو دين وبَصَرٍ ، فلا ينظر النظرةَ الخياليةَ التى لاتقنع بامرأة واحدة بل لاتزال تلتمس محاسنَ الجنس ومَفَاتنَه ، وهى النظرة التى لايقوم بها إلا أبناءُ الشعر دون بناء الأسرة ، ولا تصلُحُ عليها المرأةُ تلد أولادا لزوجها ، بل المرأة تلد المعانى لشاعرها .

ثم احتاط فى رأيه فقدّر أن ابنه ربما كان عاشقاً مفتوناً مسحورا ذا بصيرة مدخولة وقلبٍ هواء وعقل مُلتاث ، فيتمرد على أبيه ويخرج عن طاعته ويحارب أهله وربّه من أجل امرأة ، يَنْسَى أنه قال إنه هو والده وهو ربّاه وأنشأه فى بيت فيه الدينُ والخُلُق والشهامةُ والنَّجدة ، وأن محاربة الله بامرأة لاتكون إلا عملا من أعمال البيئة الفاسدة المستهتِرَة حين تجمع كل معانى الفساد والاباحة والاستهتار فى كلمة (الحرية) . وقال إن البيئة فى العهد الذى كان من أخلاقه الشرفُ والدينُ والمروءة والغيرةُ على العِرض ، لم يكن فيها شىء من هذا ، ولم يكن الأبناءُ يومئذ يعترضون آباءهم فيمن اختاروهن ، إذ النسلُ هو امتدادُ تاريخ الأب والابن معاً ، والأبُ أعرفُ بدنياه وأجدرُ أن يكون مُبَرّأ من اختلاط النظرة ؛ فيختار للدين والحسَب والكمال لا للشهوة والحب وفنون الخلاعة ؛ ولا محل للاعتراض بالعشق فى باب من أبواب الأخلاق ، بل محلُّه فى باب الشهوات وحدها .

ثم جَزَمَ الأبُ أن الولد الذى يجىء من عاشقين حَرِىٌّ أن يرثَ فى أعصابه جنونَ اثنين وأمراضَهما النفسية وشهواتهما الملتهبة ، ولهذا وقف الشرع فى سبيل الحب قبل الزواج لوقاية الأمة فى أولها ، ولهذا يكثر الضعفُ العصبي فى هذه المدنية الأوربية ، وينتشر بها الفساد فلا يأتى جيلٌ إلا وهو أشد ميلا إلى الفساد من الجيل الذى أعقبه

ولم يكد ينتهي الأبُ إلى حيث انتهى الرأيُ به حتى أسرع إلى (الباب المغلق) يهيء الزفاف ويتعجّل لابنه المطيع .... نكبةً ستجيء في احتفال عظيم ....

***

قال الشاب : وجن جنونى ؛ وقد كان أبى من احترامى بالموضع الذى لا يلق منه ، فلجأتُ إلى عمى أستدفعُ به النكبة وأتأيّدُ بمكانه عند أبى ، وبثثته حزنى وأفضيت اليه بشأنى ، وقلت له فيما قلت : افعلوا كل شيء إلا شيئاً ينتهى بى إلى تلك الفتاة ، أو ينتهى بها إلىّ . وما أنكر أنها من ذوات القُربى ، وأن فى احتمالى إياها واجباً ورجولة ، وفى سترى لها ثواباً ومروءة ، وخاصةً فى هذا الزمن الكاسد الذى بلغت فيه العذارى سنّ الجدّات ... ولكن القلب العاشق كافر بالواجب والرجولة ، والثواب والمروءة ، وبالأم والأب ، فهو علك النعمة ويريد أن علك التنعم بها ؛ وكل من اعترضه دونها كان كاللص ....

قال : قَبح الله حباً يجعل أباك فى قلبك لصاً أو كاللص

قلت : ولكنى حر أختار من أشاء لنفسى .. ...

قال : إن كنت حراً كما تزعم فهل تستطيع أن تختار غير التى أحببتها ؟ ألا تكون حراً إلا فينا نحن وفى هدم أسرتنا ؟

قلت : ولكنى متعلم ، فلا أريد الزواج إلا عن ....

فقطع على وقال : ليتك لم تتعلم ، فلو كنت نجاراً أو حداداً أو حوذياً لأدركت بطبيعة الحياة أن الذين يتخضّعون للحب وللمرأة هذا الخضوع ، هم الفارغون الذين يستطيع الشيطانُ أن يقضى فى قلوبهم كلّ أوقات فراغه ....

أما العاملون فى الدنيا ، والمناصرون فى الحياة ، والعارفون بحقائق الأمور ، والطامحون فى الكمال الانسانى ، فهؤلاء جميعاً فى شغل شاغل عن تربية أوهامهم ، وعن البكاء للمرأة ، والبكاء على المرأة : ونظرتهم إلى هذه المرأة أعلى وأوسع ؛ وغرضهم منها أجل وأسمى . وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله فى النساء ، أى انظروا اليهن من جانب تقوى الله فان المرأة تُقدِم من رجلها على قلب فيه الحبُّ والكراهةُ وما بينهما ولا تدرى أى ذلك هو حظها ، ولو أن كل من أحب امرأة نبذ زوجةً لخربت الدنيا ولفسد الرجال ، والنساء جميعا . وهذه يابنى أوهام وقتها وعمل أسبابها ، وسيمضى الوقت وتتغير الأسباب ، وربما كان الناضج اليوم هو المتعفّن غدا ، وربما كان الفجُّ هو الناضج بعد !

وهبك لاتحب ذاتَ رَحِمك ثم أكرمتها وأحسنتَ إليها وسترتَها ، أفيكون عندك أجلُ من شعورها أنك ذو الفضل عليها ؟ وهل أكرمُ الكرم عند النفس إلا أن يكون لها هذا الشعور فى نفسٍ أخرى ؟ إن هذا يا بنيّ إن لم يكن حبا فيه الشهوة فهو حب إنسانى فيه المجد .

***

ووقعت (الشكاة) وزفّت السكينة ؛ فكيف يصنع الرجل بين المحبوبة والمكروهة ؟

(طنطا) [illegible]

(رجاء إلى القراء) هذه القصة واقعة وقد بنى الرجل بامرأته وهو فى الشهر الذى لا اسم له عنده وان كان اسمه عند الناس شهر العسل . فماذا يرى له القارىء من الرأى ؟ وماذا ترى القارئة لهذه العروس اللابسة أكفانها فى عين الرجل ؟

وسننتظر أسبوعين ثم نكتب تتمة القصة ، ونرجو أن يكون هذا الفاضل عند ظن الخير به ؛ وسنبلغه ما نتلقاه من الآراء ؟ الرافعى

لجنة التأليف والترجمة والنشر

صدرت الطبعة السادسة من كتاب :

تاريخ الأدب العربى

فى جميع عصوره

بقلم الأستاذ

احمد حسن الزيات

وهذه الطبعة تقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط ، وتكاد — لما طرأ عليها من الزيادة والتنقيح — تكون مؤلفاً جديدا — الثمن ٢٠ قرشاً ما عدا أجرة البريد